تـــــاريخية الموقف العربي الإسلامي من الأقليـــات الدينية*

د. غازي مهدي جاسم الشمري

جامعة وهران

تعتبر فترة صدر الإسلام محطة أولية في القراءة التاريخية للظروف التي عاصرت تشكل الأقليات والطوائف، إذ فيها بدأ تكون الأمة العربية وتبلور موروثها الحضاري.

وإذا ما رجعنا إلى فترة ما قبل البعثة الشريفة يتضح أن القرنين لأخيرين للحكم البيزنطي في بلاد الشام ومصر شهدا تفاعل التناقضات القومية والإجتماعية مع الإجتهادات اللاهوتية، الأمر الذي تسبب في أن تغالي الدولة وكنيستها الرسمية في ممارسة الإضطهاد والإرهاب ضد رعايا الكنيستين الوطنيتين السريانية والقبطية. وكانت تلك المعاناة من أبرز عوامل الموقف الإيجابي الذي اتخذه نصارى المشرق نحو الفتح العربي– الإسلامي.

أما في الجزيرة العربية، ففيما عدا ما اقترفه ذو نواس–اليهودي المعتقد– بحق نصارى اليمن (نحو 525م) لم يذكر عن عرب الجزيرة ممارسة التمييز في أساس الجنس أو اللون أو الدين، فلا عصبيتهم القبلية وصلت حد رفض الآخر أو عزله أو الإنعزال عنه، ولا وثنيتهم اقتضت تقديم قرابين بشرية، و لم يقترفوا

---

*مداخلة بالملتقى المغاربي حول الأقليات الدينية في المغرب من الفتح إلى نهاية العهد العثماني، 5-6 ماي 2003م. كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة.

بحق عبيدهم أو مخاليفهم في العقيدة بعض ما صنعته روما في أوج تمدنها، وكان الانفتاح على الآخر من أبرز طباع العرب قبل الإسلام.

ويمكن لنا أن نؤرخ لعلاقة نوعية بين أهل الكتاب والمسلمين بدأ من هجرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، حيث خضعت هذه العلاقة لمبدأ رباني ورد في القرآن الكريم "لا إكراه في الدِّين"[1]، وتعتبر "الصحيفة" وهي الوثيقة المهمة في العلاقات الإنسانية التي ابرمت مع يهود المدنية المنورة، في حكم الوثيقة الدستورية، وقد نصت على الحرية الدينية والمدينة، فيما لا يناقض تعاليم الإسلام أو يتعارض مع التفاعل الإيجابي مع المسلمين، وحين نقض اليهود العهد، وتآمروا مع قريش وأحلافها، وهددوا أمن المدينة وسلامتها ومستقبل الدعوة الإسلامية، تغير الموقف منهم، دون أن يؤدي إلى النكوص عن المبدأ، كما أكدت ذلك الممارسة تجاه اليهود خارج الجزيرة، وحيث لم يشكلوا خطرا على العقيدة الإسلامية والجماعة والوطن.

كتب المستشرق الفرنسي كلود كاهن حول هذه المسألة "بعد كل هذا نقول أنه لم توجد نزعة عرقية في العالم الإسلامي...لقد تعهد الإسلام بحماية الديانات الآخرى، بالدرجة الأولى اليهودية والنصرانية وتأتي بعدهما الزراد شتية وغيرها من الطوائف، طالما ان هذه الديانات لا تعرضه للخطر، وقد استندت إلى تعليل شرعي لا نرى له مثيلا في الديانة المسيحية"[2].

وكانت النقلة النوعية في التعامل مع أهل الذمة، حينما فتح المسلمون البلدان المختلفة في آسيا وإفريقيا. فالخليفة الراشد أبو بكر الصديق (رض) يؤكد بخطبته في جيش أسامة على جملة من المبادئ الإسلامية حيث قال :" أيها الناس، قفوا أوصكم بعشر فأحفظوها عني:- لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا

---

[1]- سورة البقرة- الآية 256.

[2]- كلود كاهن- تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور حتى بداية الإمبراطورية العثمانية- بيروت 1972، ص 165.

تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرا، ولا شيخا كبيرا ولا إمرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فأذكر واسم الله عليها، وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب، فأخفقوهم بالسيف خفقا، اندفعوا باسم الله. افناكم الله بالطعن والطاعون"[2].

وقد أوصى أبو بكر الصديق لا تقتلن أحدا من أهل الذمة، فيطلبك الله بذمته، فيكبك الله على وجهك في النار.

وكان عمر وهو على فراش الموت يوصي بأهل الذمة خيرا، وأن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم.

وفي هذا المعنى يقول الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، من كان له ذمتنا فدمه كدم منا وديته كديتنا[3].

والخليفة عمر بن الخطاب (رض) يصلي خارج كنيسة القيامة بالقدس معززا- بإجتهاد الصحابي العالم- حرمة الكنائس وما في حكمها. وعلى النقيض نلاحظ أن من بين المشاهد التي خربها الغزاة الصليبيين مسجد عمر الذي شيد تخليدا لذكرى استخلاص ثاني الخلفاء الراشدين، مدينة القدس من أيدي الروم البيزنطيين عام 638م، ولن يألو العرب والمسلمين جهدا فيما بعد للتذكير في كثير من الأحيان بهذا الحدث ابتغاء اظهار الفرق بين سلوكهم وسلوك الفرنج، ففي ذلك اليوم دخل عمر بن الخطاب (رض) على جمله البيض الشهير، في حين كان بطريرك المدينة المقدسة الرومي يتقدم للقائه، ولقد بدأ الخليفة حديثه إليه

---

[2]- الطبري- تاريخ الأمم والملوك- المجلد الثاني- دار الكتب العلمية- بيروت 1997، ص 246.

[3]- فهمي هويدي- مواطنون لا ذميون- موقع غير المسلمين في مجتمع المسلمين-بيروت 1985، ص 114.

مؤكدا له احترام حياة جميع السكان وممتلكاتهم قبل أن يسأله حين حضر وقت الصلاة وكانا في كنيسة القيامة أين يمكنه أن يفرش بساطه للصلاة. ودعاه البطريرك إلى البقاء في مكانه، ولكن الخليفة أجاب "إذا فعلت فسيستولي المسلمون غدا على هذا المكان قائلين: لقد صلى عمر هنا".

وكانت نظرته ثاقبة، فسوف يشاد في المكان الذي صلى فيه بالذات المسجد الذي يحمل اسمه ولا يملك الزعماء الفرنج مع الاسف هذه الإريحية، فقد احتفلوا بانتصارهم بارتكاب مجزرة تعز على الوصف ثم خربوا بوحشية المدينة التي يزعمون إجلالها[4].

وحتى إخوانهم في الدين أنفسهم لم يوفّروهم، وكان أول ما اتخذوه من تدابير انهم طردوا من كنيسة القيامة جميع الكهنة –رومًا وجيورجيون وآرمنيون وأقباطا وسريانا– الذين كانوا يقيمون القداديس معا تبعا لمذهب كان جميع الفاتحين قد احترموه حتى ذلك الحين، وإذ ذهل وجهاء الطوائف المسيحية الشرقية أمام هذا القدر من التعصب، فقد عزموا على المقاومة، ورفضوا أن يكشفوا للمحتل عن المكان الذي خبأوا فيه الصليب الحقيقي الذي مات عليه المسيح حسب اعتقادهم.

ولما أجلى الوليد بن عبد الملك جماعة من أهل الذمة من قبرص إلى الشام"لأمر اتهمهم به" وهو التخابر مع الروم أعداء الدولة الإسلامية وقتئذ استفظع ذلك المسلمون واستعظمه الفقهاء، فلما ولي يزيد بن الوليد الحكم ردهم إلى قبرص، فاستحسن المسلمون ذلك من فعله ورأوه عدلا.

كتب البلاذري يقول :"كان الوليد بن يزيد بن عبد الملك أحلى منهم خلقا إلى الشام لأمر لتهمهم به، فأنكر الناس ذلك، فردهم يزيد بن الوليد بن عبد الملك على بلدهم، وكان حميد بن معيوف الهمداني غزاهم في خلافة

---

[4]– أمين معلوف– الحروب الصليبية كما رآها العرب– دار الفارابي– ط2 بيروت 1993، ص 77–78.

الرشيد لحدث أحدثوه فأسر منهم بشرا، ثم أنهم استقاموا للمسلمين فامر الرشيد برد من أسر منهم فردوا"[5]

وفي موقف عمر بن الخطاب (رض) من نصارى تغلب، وقبوله الصدقة منهم بديلا عن الجزية، تأكيد للموقف العربي الإسلامي تجاه من لا يعادون العقيدة الإسلامية ولا يمارسون ما يهدد مسيرة الجماعة.

كتب الطبري يقول: كان رسول الله (ص) قد عاهد وفدهم (وفد تغلب) على ألا ينصروا وليدا، فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من وفدهم، ولم يكن على غيرهم، فلما كان زمان عمر قال مسلموهم:-"لا تنفروهم بالخراج فيذهبوا، ولكن أضعفوا عليهم الصدقة التي تأخذونها من أموالهم فيكون جزاء، فإنهم يغضبون على ذكر الجزاء على ألا ينصروا مولودا إذا أسلم آباؤهم...وكان في بني تغلب عز وامتناع"[6].

ويشير ظافر القاسمي -استنادا إلى الأب لامنس- أن الجزية وجدت قبل الإسلام إذ كان يفرض الروم على الذكور في سن الثانية عشرة، وعلى الإناث في سن الرابعة عشرة وقد فرضها الإسلام على الرجال المنتجين، الكاسبين فقط. وكانت سنة رجال العهد الأول إسقاطها عمن يحارب مع المسلمين، وكأنها بديل عن المشاركة في القتال[7].

وحصل الفاتحون المسلمون- وهم أقلية آنذاك- على امتيازات مادية ومعنوية، لحملهم عبء الجهاد والقتال والتضحية وتشكيلهم النخبة السياسية والإدارية.

---

[5]- البلاذري- فتوح البلدان- حققه وشرحه عبد الله أنيس الطباع وعمر انيس الطباع، بيروت 1957، ص 210.

[6]- الطبري- المصدر السابق- ص 485.

[7]- المسحيون العرب- دراسات ومناقشات- تحرير إلياس خوري- بيروت 1981، ص 83.

في حين خضع أهل الكتاب لأحكام "أهل الذمة"، واختلفت اجتهادات المعاصرين حول امتيازات عرب الفتح ونظام "أهل الذمة"، فمن حاكمها بمقياس زمانه اعتبرهما مظهرين لتمييز عرقي وديني، ومن نظر إليهما بمعايير الأمس وبما كان خارج دولة الخلافة انتهى إلى إنصاف التجربة، بل واعتبار الموقف من أهل الكتاب من اليهود والنصارى فتحا في عالم الفكر، وابتكارا عبقريا.

ولم يتوقف تلامذة الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت كأبي يوسف، ومحمد بن الحسن الشيباني، زفر بن الهذيل، الحسن بن زياد في إجتهاداتهم عند مفهوم "أهل الذمة" على الأقليات الدينية من اليهود والنصارى، وإنما اتسع ليشمل الصائبة والسامرة وغيرهم وعوملوا على أساس أنهم أهل كتاب.

وقد تمتع أهل الذمة بالمعنى الواسع للكلمة- بحرية دينية ومدنية في صدر الإسلام، حيث كانت القناعة اليقينية سبيل التحول إلى الإسلام، وفيما بين الطوائف الأخرى. وضبط الفقهاء الممارسة بتصديهم لكل من حاول الخروج على أحكام الشرع في التعامل مع أهل الكتاب، كما فعل أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم — تلميذ أبي حنيفة — الذي نقل عنه قوله لهارون الرشيد "وقد ينبغي يا أمير المؤمنين أيدك الله أن تتقدم في الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد (ص) والتفقد لهم حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ولا يؤخذ شيء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم. فقد روي عن رسول الله (ص) أنه قال " من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه"[8].

وشهدت فترة صدر الإسلام —إلى جانب حرية الاعتقاد- صراعات اجتماعية، انعكست في الأدبيات الفكرية، ثم في الاجتهادات الفقهية. وقد توافرت للفقهاء حرية القول والبحث، فيما لا يمس مصالح الفئة الحاكمة أو

[8]— أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، بيروت، (بدون) ص 124-125.

يؤثر في صراعاتها السلطوية، واتسمت المرحلة بسعة صدر جمهرة الفقهاء بحيث تتلمذ بعضهم على بعض وإن اختلفت المذاهب ووجهات النظر. وكان لنخب جميع شعوب المنطقة مساهمة ملحوظة في الجدل الدائر. وقد تأثرت الحركات الاجتماعية والفرق المذهبية، والدعوات الباطنية بمؤثرات غير إسلامية وغير عربية، في حين ساهمت الصراعات السياسية والجدل الاجتماعي والمشاعر الذاتية والرواسب الموروثة في تعدد وجهات النظر، وتوزع الفقهاء مدارس ومذاهب.

ورغم مرور القرون فإن تراكمات صدر الإسلام بقيت الأقدر على التأثير في مسيرة الأمة فالحرية النسبية سهلت تعدد المذاهب والطوائف، وانعدام المشاعر العنصرية الرافضة للآخر حمت من شاء أن يحتفظ بتمايزه الديني أو الأثني، وبذلك احتفظت الأمة بالتعدد في ظلال الوحدة وكان تنوعها العقيدي والأثني ثراء لها، ثم إن المرحلة أورثت الأمة مرونة نسبية كانت لها فعاليتها في المراحل التالية.

ففي العصر العباسي بدأت مرحلة جديدة، حيث أحدث الخليفة المعتصم بالله (218-227هـ) تغييرا جذريا في النخبة القائدة، حين أخرج العرب من ديوان الجند، وشكل جيشا محترفا من الترك والديلم. ومن بعد المتوكل صار لمرتزقة الجند ونساء القصر دور متنام في اختيار الخلفاء. وكان ذلك إيذانا بضعف سلطة المركز الخليفي، مما تسبب في تمزق سياسي، ساهم في تدهور الأنشطة الإنتاجية كافة، وإذكاء الصراعات الاجتماعية والمذهبية.

ويلاحظ أن القيادة الجديدة من البويهيين والسلاجقة مارست السلطة قبل أن تتعرب أو تستوعب تعاليم الإسلام، وبافتقادها الرابط القومي والوعي الديني شكلت طبقة عازلة بين قمة الهرم الاجتماعي وقاعدته، فكانت قوة ضغط في الموقعين.

وكان صدام الأقليات الدينية مع رموز السلطة في أضيق نطاق، بينما كان خوف هؤلاء من الأقليات محدودا، خلافا للأمر في الحالين بالنسبة إلى الأكثرية. ومن جهة ثانية حرص الفقهاء على الالتزام بالشرع فيما يتصل بأهل الذمة، فحين همّ الوالي العباسي صالح بن علي بإجلاء المواركة عن جبل لبنان، لأن بعضهم خرج على السلطة عارضة الإمام الأوزاعي قائلا:" كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئا لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم، ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى "ألا تزر وازرة وزر أخرى"[9]، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قال من ظلم معاهدا وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه" ثم قال، فإنهم ليسوا بعبيد فتكون من تحويلهم من بلد إلى بلد في سعة ولكنهم أحرار أهل ذمة[10].لقد نهض الأوزاعي الفقيه لينكر على الوالي فعلته قائلا إنهم ليسوا بعبيد يعبث الوالي بمصائرهم كيف شاء، ولكنهم أحرار أهل ذمة.

وخلال المرحلة استكملت الأمة تكوينها، وتواصل التفاعل الإيجابي بين الأكثرية والأقليات، وانعكس ذلك في تصرف غالبية المسيحيين العرب. ففي الصدام مع البزنطيين في بلاد الشام، كان بطريرك إنطاكية مؤيدا للحمدانيين ضد الروم البيزنطينيين وفي المناطق التي استعادها البيزنطيون في القرن العاشر احتفظ المسيحيون العرب بموقفهم المؤيد لأبناء قومهم المسلمين.

لاشك أن العصر العباسي شهد ما هو متخلف عما عهد في صدر الإسلام، ولكن المواقف والممارسات ظلت متقدمة عما كان قائما خارج الدائرة العربية، إذ لم تعرف إرهابا فكريا أو تعصبا دينيا في مستوى ما كان

---

[9] – سورة النجم، الآية38.

[10]– البلاذري– مصدر سابق– ص 222.

سائدا خارجها. كما لم تشهد اضطهادا عرقيا أو حروبا طائفية. ثم إن الإضطهاد كان سلطويا، وعانت منه الأكثرية بما يكاد يفوق معاناة الأقليات الدينية أو العرقية.

وبدأت مع الحروب الصليبية مرحلة جديدة، أبرز معاملها عودة المداخلات الأجنبية تفرض ذاتها على الحراك السياسي والاجتماعي والعلاقات بين أتباع الأديان والطوائف المختلفة في الوطن العربي. فإلى جانب غزو أوربا للمشرق وضغطها على سواحل المغرب العربي، اجتاح المغول ثم التتار المشرق، وتحول الشرق الإسلامي من أن يكون داعما ليصبح ضاغطا من خلال الدعوات الباطنية والفرق المذهبية، العاملة على تمزيق وحدة الجماعة، وإقامة الصراعات المذهبية بين المسلمين.

وقام بين الغزاة تحالف وتعاون، فهولاكو في حملته على حلب مع كل من ملك أرمينيا الصغرى وملك إنطاكية الصليبي. وعقد تيمورلنك إتفاقية مع البندقية، في حين حاول المبشرون تنصير المغول والتتار وتسخيرهم في صراع أوربا مع المنطقة. وتباروا جميعهم في أعمال الذبح والقتل والحرق والتدمير، فكانت حربا بين البربرية الغازية والحضارة المقيمة تجسدها المقارنة بين ذبح غوذيفري لما قدرته المصادر التاريخية بالألوف من سكان القدس حين دخلها كأول قائد للحملات الصليبية، وبين دفع صلاح الدين الفدية عن شيوخ الفرنجة وعجائزها يوم حرر المدينة المقدسة بعد أسر دام المائة عام[1]

ولم تكن الحرب بين الإسلام والمسيحية دائما -وإن بدت كذلك- فالحملة الصليبية الرابعة اتجهت للقسنطينية، وصلاح الدين الأيوبي حين حرر

[1] - بهاء الدين بن شداد- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين تحقيق جمال الدين الشيال- الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة 1964، ص 828.

إنطاكية اصطحب معه البطريرك الأرثوذكسي[1]، مكررا ما سبق أن فعله عمرو بن العاص مع بطريرك الإسكندرية يوم حررها من الروم البيزنطيين.

كما وجد بين النخبة الحاكمة من هادن الغزاة وسار في ركابهم، ولقد أمضى صلاح الدين من الوقت في قتال المتآمرين والمتخاذلين بأكثر مما أمضاه في حربه ضد الغزاة الإفرنج.

و لم تضع الحرب أوزارها حتى أصبح المسلمون أكثرية ساحقة، واختلفت الاجتهادات حول ما شهدته المرحلة من دخول كثيف في الإسلام حتى إن المماليك خرجوا على المبدأ في التعامل مع أهل الكتاب كرد فعل لما اقترفه الإفرنج في المشرق والاسبان في الأندلس.

وقيل أن الغزو الأوربي أوقع المسيحيين العرب في حرج شديد، ألطف ما يقال فيه إنه خيرهم بين الوقوف مع بني دينهم وبين الوقوف مع بني قومهم، ويبدو أن المسيحيين العرب في معظمهم اختاروا الحل الثاني. فكان المسعى الصليبي وبالاً على المسيحية العربية من حيث ظن أو صور أنه دفاع عنها[2]. وللمؤرخ توينبي رأي خلاصته أن الصراعات الداخلية والعدوان الخارجي دفعا المجتمع للتماسك الروحي تجاه الجائحة التي كانت تهدد باقتلاعه من أساسه[3]. وأيا كان السبب فإن ما تحقق أدى إلى توسيع إطار الأكثرية، وجعلها أغلبية ساحقة في كل نواحي الوطن العربي.

ودفعت الأمة العربية غاليا ثمن دحر الغزاة، من تدمير لمعالم الحضارة في العراق وبلاد الشام إلى تدهور اقتصادي وتخلف اجتماعي في مصر وسائر

---

[1] – جورج خضر – المسيحيون العرب – دراسات ومناقشات – تحرير إلياس خوري – بيروت 1981، ص 83.

[2] – فكتور سحاب –من يحمي المسيحيين العرب؟ "المستقبل العربي" السنة4 العدد 30، بيروت 1984، ص95.

[3] – فؤاد محمد شبل –حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ– القاهرة 1968، ص41.

المشرق. وتسبب ذلك متفاعلا مع افتقاد الاستقرار والأمن في انتكاس التجارة والحرف. فتدهورت فعالية الملاك والتجار وكبار الحرفيين، وتدنت بالتالي قدرتهم على التأثير في مجريات الأمور، في وقت عززت فيه الانتصارات سلطة المماليك ودورهم في التعاطي مع المشكلات الداخلية، وفي تناولهم قضايا الأقليات ومشاكلها تأثروا إلى جانب انعكاسات ما يجري داخل المنطقة بعاملين خارجيين :

أ-قرارات الحرمان الكنسية ضد التعامل التجاري مع المسلمين، ونمو النفوذ الأوربي في البحر الأبيض المتوسط. وتنامي التعصب والعنصرية الأوربيين كما عكست ذلك محاكم التفتيش وممارسات القراصنة في الثغور أعالي البحار.

ب-صعود العثمانيين وتهديدهم سلطة المماليك في بلاد الشام ومصر، مما عمق إحساس المماليك باشتداد الحصار من حولهم، الأمر الذي دفعهم للتصرف بانفعال ضد كل ما يمكن أن يهدد الاستقرار الداخلي.

وكان أن شهدت الأرض العربية- ولأول مرة منذ الفتح- إرهابا سلطويا للأقليات وصل توجيه الحملات العسكرية لقمعها. فساد الانغلاق والتشرذم بعد طول تفاعل وانفتاح. كما شهدت المدن فرزا سكانيا على أساس مذهبي، بعد أن كان الفرز السكاني عشائريا وقبليا بصورة أساسية، فوجدت حارات للنصارى ولليهود، وللأكراد والسريان.

وأقام المماليك "نظام الملل" لحل الأشكال الطائفي، واعتمد النظام على اجتهاد الإمام أبي حنيفة في منح اتباع كل شريعة سماوية حق الاحتكام لشريعتهم فيما لا يتعارض مع أحكام الإسلام. وبهذا أعطيت العصبيات المحلية والطوائف استقلالا ذاتيا في الشؤون الدينية ومعظم الشؤون الدنيوية، وأتيح لنخب العصبيات والطوائف أن يكون لها دور قيادي في طوائفها. كما تسبب ذلك في تشكل تكوينات اجتماعية قوامها الطائفة أو "العرق" بعد أن كانت القبيلة أو الحي أساس المتحد الاجتماعي العربي.

وكان من تراكمات المرحلة أن تولدت حساسيات ومخاوف لدى المسلمين في التعور وعلى التخوم، وانعكس ذلك في المصنفات الفقهية للمرحلة. وهناك –كمثال صارخ– العهد المنسوب إلى الصحابي أبي عبيدة بن الجراح، والذي يعكس تعصبا شديدا وحقدا على المسيحيين. وهو عهد نشره ابن عساكر لأول مرة سنة 571هـ. ويشك أنه مصنوع في القرن السادس الهجري على صيغة العهود القديمة. كما يمكن القول إن بعض فقراته تاريخية، ولكنها منتزعة من سياقها. وكذلك كتاب أحكام أهل الذمة لابن القيم الجوزية، الذي غاص في تفاصيل أكثرها غير تاريخي، ويمكن تتبع ظهورها في القرنين الخامس والسادس الهجريين.[1]

أقول أن العهد المنسوب إلى الصحابي أبي عبيدة بن الجراح (رض) مدسوس عليه لأنه وردت إشارات عن الصلح في فتوح الشام للواقدي، وهو أقدم عهدا من تاريخ دمشق حيث يقول :" فنزل القوم...وإذا هم مائة رجل من كبرائهم وعلمائهم فلما قربوا من عسكر أبي عبيدة تبادر إليهم المسلمون وأزالوا عنهم الصلبان إلى أن وصلوا خيمة أبي عبيدة فرحب بهم وأجلسهم وقال إن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إذا أتاكم عزيز قوم فأكرموه وتكلموا في أمر الصلح وقالوا إنا نريد منكم أن تتركوا كنائسنا ولا تنقصوا علينا منها كنيسة وهي الجامع الآن بدمشق فقال لهم أبو عبيدة جميع الكنائس لا يؤمر بهدمها..فكتب لهم كتاب الصلح والأمان ولم يسم فيه اسمه ولا أثبت شهودا وذلك لأنه لم يكن أمير الجيش: فلما كتب لهم الكتاب تسلموه منه وقالوا له قم معنا إلى البلدة"[2] وقد رافقة في دخول دمشق 35 صحابيا ففيهم: معاذ بن

---

[1] – رضوان السيد –المسيحيون في الفقه الإسلامي، المسيحيون العرب– مرجع سابق، ص 45.

[2] – الواقدي– فتوح الشام، وبهامشه تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الولاة والسلاطين، القاهرة، ص 45 ؛ ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ج 2، ص277.

جبل، نعيم بن عمر، عبد الله بن عمرو، الدوسي وحسان بن النعمان والمغيرة بن شعبة وأبولبابة بن المنذر وغيرهم، ومع أن المرحلة شهدت تحولات جذرية سلبية للغاية في التعاطي مع الأقليات وأفرزت تعصبا طائفيا ومذهبيا لم تزل الأمة تعاني منهما، إلا أن الواقع العربي بكل قتامته لا يقارن بما كان قائما سواء في الغرب أو في الشرق. ثم إن الإرهاب والقهر كانا من فعل سلطة بلا جذور في الأرض العربية، وقامعة للأكثرية بما لا يقل عن قمعها للأقليات.

كما أن المستجدات لم تغير كثيرا من الثوابت في المنطقة. فمن جهة تواصل التفاعل الحيوي في المجتمع العربي على جميع الصعد، وكثيرا ما تقدم الولاء القبلي على سواه، فالانقسام إلى قيسين ويمنيين طالما شطر الطائفة الواحدة والمذهب الواحد إلى صفين متصادمين ومتحالف كل منهما مع شركاء الانتساب القبلي من أبناء الطوائف الأخرى، ومن جهة ثانية احتفظت الكنيسة الأرثوذكسية- الممثلة للغالبية الساحقة للمسيحيين العرب آنذاك- بموقعها التقليدي الرافض للتغريب. فقد رفض بطاركة الشرق الثلاثة المشاركة في مجمع فلورنسا المنتهي سنة 1439، واجتمعوا في القدس سنة 1443، وقرروا رفض اتحاد كنائسهم مع البابوية في روما[1].

إن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ألحا على إعلاء قيمة الإنسان وإعلان مكانته في الأرض وفي السماء، ولم تكتف بأن أقامت العديد من الجسور التي يلتقي عليها المسلمون وغيرهم، ولكنها أيضا لم تتردد في أن تلقن المسلمين منذ 14 قرنا دروسا عديدة في كيفية عبور تلك الجسور ومخاطبة الآخرين.

كتب الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى مالك الاشتر، حين ولاه مصر بعد مقتل محمد بن أبي بكر الصديق "وأشعر قلبك الرحمة للرعية

[1] - جورج خضر، مرجع سابق، ص 55.

والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، تفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فاعطهم من عفوك وصفحك، مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه"[1].

[1] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، دار الجيل، بيروت ط3 1983، مج4، ج17، ص120.